

جهود علماء التجويد في الدراسات الصوتية

إنَّ النظر في موضوعات علمي التجويد والأصوات اللُّغويَّة والقضايا التي تستأثر باهتمام المتخصِّصين بهما ، يُبيِّن أنَّ بينهما قدراً كبيراً من التشابه والاشتراك في بحث موضوعات واحدة، ويبدو أنَّ تطور الدرس الصوتي العربي في العصر الحديث قد أدَّى إلى هذه النتيجة التي تشير إلى أنَّهما علما ن لكل علم منهما كتبه ، ومنهجه في البحث ، لكنَّ هذا التطور التاريخي للبحث لا يمكن أن يلغي ما بين هذين العلمين من تقاربٍ كبير بحيث ، يكمل أحدهما الآخر، ويستفيد أحدهما من نتائج البحث في الآخر..

ومع أنَّ علم الأصوات لم يُعرف بهذا الاسم عند العرب إلَّا في مرحلةٍ لاحقة، فإنه لم يغب عن مُصنِّفات المتقدمين من علماء العربية

و علم التجويد هو العلم الذي يبحث فيه عن مخارج الحروف وصفاتها وما يتعلق بها افرادا وتركيبا في القرآن الكريم . وقد دعا الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم الامة ان تحسن نطق اصوات القرآن الكريم . قال (ص) "زينوا القرآن بأصواتكم" وقال "حسنوا القرآن بأصواتكم فان الصوت الحسن يزيد القراءة حسنا "

ولعلم التجويد صلة بعلم القراءات التي هي اختلاف الفاظ الوحي بالحروف وكيفياتها من تخفيف وتضعيف وادغام وابدال ونحو ذلك فالقراءات وجوه متعددة في طرائق اداء القرآن الكريم ممثلة لطرائق نطق القبائل العربية .

ولعلماء التجويد جهود كبيرة في علم الاصوات التي هي تطبيق عملي للقراءات القرآنية ومن هؤلاء العلماء عبد الله بن كثير المكي (ت 120هـ) وابو بكر عاصم بن ابي النجود(ت 127 هـ) وابو عمرو بن العلاء (ت157 هـ) ونافع بن ابي نعيم المدني (ت169 هـ) وعبد الله بن عامر الدمشقي (ت 199 هـ) ، ويعد ابن الجزري(ت832 هـ) من اغزر علماء التجويد انتاجا في ميدان التأليف وبخاصة في علم القراءات ، منها : اصول القراءات ، و تحبير التيسير في القراءات العشر ، والنشر في القراءات العشر ، وغيرها من الكتب التي درس فيها مخارج الحروف وصفاتها وما يلحقها في النطق من تغيير .

تناول علماء التجويد في مؤلفاتهم الحالات الصوتية المختلفة والتغيرات التي تطرأ على الصوت في أثناء النطق ، وأوضحوا حالات الادغام والغنة ، وفصلوا القول في حالات الامالة ، وبينوا أسبابها واحكامها وعرفوا الوقف وذكروا اقسامه واحكامه وبينوا ظاهرة المد وانواعه واحكامه وغير ذلك من

الظواهر الصوتية مثل الاعلال والابدال والاشمام والاختفاء والاطهار وما الى ذلك من المسائل الصوتية التي لها علاقة وثيقة بعلم التجويد .

فعلم الصوت وعلم التجويد يرتبطان ارتباطاً وثيقاً ولا نجد عالماً من علماء التجويد الا وقد فصل القول في الظواهر الصوتية وشرحها شرحاً مسهباً لان علماء التجويد يعدون المسائل الصوتية مفتاحاً او باباً يلجون منه الى مسائل التجويد والقراءات المختلفة .يقول ابن اسكندر (ت 1084 هـ) وهو أحد علماء التجويد: ان فائدة الاصوات هي تمييز الحروف المشاركة في المخرج ولولاها لا تحدث اصواتها ولم تتميز ذواتها ولولا الاطباق لصارت الطاء تاء لانهما ليس بينهما فرق الا في الاطباق .

وكان لعلماء التجويد اساليب وطرائق ومناهج في تناول الدراسات الصوتية فمنهم من كتب فيها كتاباً منفرداً مثل مكي بن ابي طالب القيسي الذي ألف كتاباً بعنوان (الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة) حيث بين مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وألقابها وكل ما يتعلق بها .ومنهم من افرد لها جزءاً من كتابه تناول فيه الاصول وحدث عن الادغام والهمز والاعلال وغير ذلك من الظواهر والمسائل الصوتية من ذلك كتاب (الموضح في تعليل وجوه القراءات السبع) لابي العباس المهدوي . ومنهم من جعلها بضمن كتابه اي صيرها مبحثاً من مباحث كتابه او فصلاً من فصوله تناول فيه التعليقات الصوتية والاحتجاجات اللغوية مثلما فعل ابن خالويه في كتابه (الحجة في القراءات). وهكذا تتضح العلاقة الوثيقة بين علم الصوت وعلم التجويد .

الفكرة التي تستند اليها الدراسة الصوتية عند علماء التجويد

لقد سبق علماء النحو واللغة علماء التجويد في دراسة الأصوات العربية التي كانت تتناسب مع حاجة الموضوعات التي كانوا يعالجونها ، كما رأينا عند الخليل وسيبويه وابن جني وابن سينا ، وغيرهم من العلماء ممن اهتم بعلم اللغة ؛ وذلك لإدراك اللحن أو الخطأ الذي قد يحدث للكلمة والتركيب الجملي لا سيما في قراءة القرآن الكريم ، وهو ما يُسمَّى بالخطأ الإعرابي الذي قد يغيّر معنى الكلام ، فهو خطأٌ ولحنٌ ظاهر.

وقد جاء بعد الرعيل الأول من علماء اللغة النحاة المتأخرون ، فقد ظلَّت دراسة الأصوات تسير عندهم في الإطار نفسه ، فضلاً عما دَعَوْا اليه أنَّ من أسباب البحث في الأصوات أنَّ ينطقَ غير العربي بالأصوات

العربية مثلما ينطق العربي ، وهو اتجاه تعليمي محض ، ومن بين هؤلاء العلماء أبو حيّان الاندلسي (ت 745 هـ) فهو أول من ذهب الى هذا المذهب الجديد في تحديد غاية الدراسة الصوتية عند النحاة .

أمّا علماء التجويد في دراستهم للأصوات فكانت ترتبط بشكل أساسي بمعالجة ما أسموه باللحن الخفي ، فقد قسموا اللحن على قسمين الأول : اللحن الجلي ، هو الخطأ الظاهر في الحركات خاصة ، وقالوا بأنّه ميدان عمل النحاة و الصرفيين ، والآخر : هو اللحن الخفي : وهو الخلل الذي يطرأ على الأصوات من جراء عدم توفيتها حقوقها من المخارج أو الصفات ، أو ما يطرأ لها من الأحكام عند تركيبها في الكلام المنطوق ، وقالوا أنّه ميدان عمل علماء التجويد. وهو ما يستلزم دراسة ثلاثة أمور من وجهة نظرهم ، هي :
1- مخارج الحروف . 2- صفاتها . 3 - أحكامها التركيبية .

جاء في كتاب (التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي) لأبي الحسن السعدي (ت 410 هـ) ، الذي أشار الى فكرة تقسيم اللحن ، يقول في مقدمته : ((ينبغي لقارئ كتاب الله عزّ وجلّ بعد معرفته باللحن الجلي أن يعرف اللحن الخفي ، لأنّ اللحن لحنان ...

فاللحن الجلي هو أن يرفع المنصوب ، وينصب المرفوع ، أو يخفض المنصوب والمرفوع وما أشبه ذلك ، فاللحن الجلي يعرفه المقرئون والنحويون وغيرهم ممّن قد شَمّ رائحة العلم .

واللحن الخفي لا يعرفه إلاّ المقرئ المتّقن الضابط ... المُعطي كلّ حرفٍ حقّه غير زائدٍ فيه ولا ناقصٍ منه ، المتجنب عن الافراط في الفتحات والضمات والكسرات والهمزات ، وتشديد المشدّدات ، وتخفيف المخففات ، وتسكين المسكنات ، وتطنين النونات ، وتفريط المدّات وترعيدها ، وتغليظ الرّاءات وتكريرها ، وتسمين اللامات وتشريبها الغنة ، وتشديد الهمزات وتلكيزها))¹ .

إنّ فكرة اللحن الخفي كان له تأثير كبير في دراسة علماء التجويد للأصوات ، سواء كان ذلك في المنهج أو التفصيلات ، ومن أهم الكتب التي تناولت الموضوع بشكل مفصل ودقيق كتاب (الموضح في التجويد) ، لعبد الوهاب القرطبي (ت 462 هـ) .

¹ (نقلا عن د. غانم قدوري الحمد ، ينظر : الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، ص 49 .

يتضح من ذلك أنّ فكرة دراسة الأصوات في علم التجويد قائمة على ملاحظة اللحن الخفي ومحاولة معالجته وتصحيح النطق بالأصوات ، فهم درسا أصوات اللغة وحددوا صور نطقها الصحيحة ، ورصدوا الانحرافات المتوقعة في نطقها ممّا أسموه باللحن الخفي ليحترز الناطق بها ويتجنبها .